## ١

## حفر زمزم

كان عبد المطلب سمح الطبع رضى النفس، سخى اليد، حلو العشرة عذب الحديث. وكان عبد المطلب أيضًا قوى الإيمان، تملك قلبه وتسيطر على نفسه نزعة دينية حادة عنيفة، ولكنها غامضة، يحسها ويخضع لها، ولكنه لا يتبينها ولا يستطيع لها فهمًا ولا تفسيرًا. وأبوة من مكة، حيث التجارة والثروة، وحيث المكر والدهاء، وحيث الوثنية السهلة التى لا تحرُّج فيها ولا مشقة. وأمُّه من يثرب، حيث الزراعة والصناعة اليسيرة، وحيث اليهودية تجاور الوثنية فتضعفها، وتنقص من ظلها وتكاد تمحوها، وحى الأخلاق اللينة والشمائل الحلوة، وحيث الظرف ونعومة الحياة.

ولد فى يثرب، ومات عنه أبوه فلم ينقله إلى مكة، فنشأ بين أخواله وتأثر بحياتهم وتخلق بأخلاقهم وسار سيرتهم، حتى بلغ الشباب أو كاد. ثم أقبل عمه فانتزعه من إقليمه السهل الهين، إلى إقليم آخر صعب عسير، تجذب فيه الأرض، ولا تبتسم له السماء إلا قليلاً، ويرحل أهله إلى الآفاق ويفد على أهله الناس من جميع الآفاق، فهم يأخذون من الناس ويعطونهم ويبادلونهم الأخلاق والشمائل كما يبادلونهم المنافع وعروض التجارة. ولعل أخلاق يثرب وخصال مكة قد اختصمت فى نفس هاذ الغلام. ولعل اختصامها قد طال، ولعل اختصامها قد قصر، ولكنها على كل حال قد انتهت إلى شىء من الاعتدال آخر الأمر. فلم يكتمل الفتى شبابه حتى كان فتى من قريش، ولكنه يمتاز من بقية فتيان قريش: فيه ذكاؤهم وفطنتهم، وفيه إباؤهم وعزتهم، ولكن فيه دعة لم تكن مألوفة عندهم، وفيه شدة فى الدين قلما كانوا يرضونها أو يبسمون لها. على أن خصلة أخرى ميزته منهم أشد التمييز؛ فلم يكن يصدر فى حياته، كما كانوا يصدرون، عن الروية والتفكير وطول التدبر، وإنما كانت تدفعه إلى العمل والاضطراب فى الحياة قوة خفية يحسها ويأبى عليها ويغلو فى الإباء، ولكنه يُضطر إلى أن يذعن لها ويأتمر أمرها. وكانت هذه القوة تُصدر إليه أمرها فى أشكال مختلفة: تدفعه إلى العمل حينًا وكأنها إرادته الخاصة، قد ملكت عليه حسه وشعوره، فهو لا يستطيع عنها انصرافًا، ولا يملك لها خلافًا. وتتمثل له حينًا آخر شخصًا واضح المخايل، بيِّنَ الصورة، يلمُّ به إذا اشتمله النوم، فيأمره أن يأتى كذا وكذا من الأمر. وتنتهى إليه مرة ثالثة صوتًا رقيقًا، ولكنه ملح يملأ أذنيه يقظان، ويملأ أذنيه نائمًا، يحثه على أن يأتى كذا وكذا من الأمر. وكان فى هذا لصوت غموض، وكان فى هذا الصوت إبهام، وكان فى هذا الصوت جلال مصدره هذا الغموض والإبهام. وكان الفتى ينكره ويرتاع له، وكان الصوت يغمره ويلح عليه. وكان الفتى يخاف هذا الصوت ويهواه، وكان الصوت يتجنب الفتى

حتى يؤيسه من نفسه، ويلم به فيكثر الإلمام، ولم يكن هذا الصوت يقع فى أذن الفتى بألفاظ كالتى تقع فى آذان الناس إنما كان يصطنع ألفاظًا خاصة غريبة الجرس غريبة المعنى.

كانت إليه رِفادة الحاجِّ وسقايته بعد عمه المطلب، فكانُ يطعم الناس إذا حجوا البيت ويسقيهم، يجمع لهم الماء ى أحواض من الأَدَمِ. وكان يجد فى جمع هذا الماء لسقاية الحجيج جهدًا وعسرًا. فبينما هو نائم ذات يوم أو ذات ليلة أتاه آت رأى شخصه ولم يتبين له سمةٌ ولا شكلاً، وقال له فى صوت رفيق غريب، فيه أنس وفيه وحشة: "احفُر طيبة". قال: "وما طيبة؟" فانصرف الشخص، وانقطع الصوت. وأفاق الفتى وفى نفسه ذعر وعجب وأمل، وحاول أن يعود إلى النوم، لعله يرى هذا الشخص، أو يسمع هذا الصوت، أو يتبين هذا الحديث، ولكن كان النوم قد خاصم عينيه، وانصرف عنه مع هذا الشخص الغريب. ففكر وأطال التفكير، وقدّر وأطال التقدير ،وتقلب فى مضجعه فأكثر التقلب، حتى ضاق بالنوم واليقظة وسئم مضجعه، فجلس يرقى ببصره الحائر إلى السماء، لعل شمس النهار أو نجوم الليل تفسر له هذه الرؤيا ويخفض بصره إلى الأرض لعله يجد فى إطراقه تفسير هذه الرؤيا. ويمد بصره نحو الكعبة، لعل صنمًا من هذه الأصنام المنصوبة يوحى إليه تعبير هذه الرؤيا. ولكن السماء صامته والأرض ساكنة، وعلى أصنام الكعبة شىء كأنه الوجوم، فيرتد إلى الفتى بصره متعبًا مكدودًا. وتهوى نفسه إلى قراءة ضميره، لعلها تجد لهاذ الرمز تأويلاً فلا تجد شيئًا؛ فيشتد بها الذعر، ويزداد فيها العجب. ويبقى الأمل. وينهض الفتى فيضطرب مع الناس فيما يضطربون فيه من أمور الحياة.

ثم يُقبل الليل ويأوى الفتى إلى مضجعه، وقد أنسى كل شىء، إلا أنه قد مشى كثيرًا، وأجهد نفسه كثيرًا، وأنه أشدُ ما يكون حاجة إلى أن يبسط عليه النوم جناحيه. ها هو ذا مغرق فى نوم هادئ مطمئن، وقد هدأ من حلوه كل شىء، واطمأن فى نفسه وجسمه كل شىء. ولكن ما هذا الشخص الغريب يقبل ساعيًا إليه فى أناة، حتى إذا دنا منه قال له فى صوت رقيق غريب فيه أنس وفيه وحشة: "احفر بَرَّةَ"؟ وجسم الفتى هادئ مطمئن، ولكن نفسه ثائرة مضطربة، ولسانه يتحرك فى ثقل، وصوته ينبعث من بين شفتيه خفيفًا رقيقًا بهذه الكلمة: "وما بَرةُ؟". فينصرف الشخص، وينقطع الصوت،ويفيق النائم وَجِلاً مذعورًا، مُعجبًا آملاً، ويفكر ويقدر ويتقلب. ثم ينهض فيسأل السماء ولكنها صامتة، ويسأل الأرض ولكنها ساكنة، ويسأل أصنام الكعبة ولكنها مغرقة فى البله والوجوم. ويضيق الفتى بنفسه وبالسماء والأرض والأصنام؛ فيهيم على وجهه يلتمس فى الحركة والاضطراب نسيان هذا الطائف الذى يُفزعه ويغريه. ثم يعمل الناس فى أمور الحياة، وينقضى النهار بخيره وشره، وحلوه ومُرَه؛ ويقبل الليل شيئًا فشيئًا، فيبسط أدريته السود على ما يحيط بمكة من جبال وآكام، ويما يزال يمدُ هذه الأردية حتى يغمر كل شىء ويستر كل شىء، لولا هذه المصابيح الضئيلة التى تشب فى الأرض، وهذه النجوم القليلة

التى تضطرب فى السماء، وقد سَمَر الفتى مع السامرين، فسمع أحاديث التجار عن غرائب الأقطار: هذا يحدِّث عن صور بُصْرَى وعظمتها، وهذا عن الخَوَرْنَق والسدير، وهذا يذكر غُمدان، وهذا يصف أخلاق اليمانيين ومكرهم بالتجار، وهذا يتحدث عن سذاجة أهل الشام وانخداعهم لغِربان العرب، وهذا يذكر ما أفاد من ربح حين باع الأدمَ فى الحبشة، وهذا يذكر للقوم ما حمل لهم من خمر بَيسان. وهم فى أثناء هذا كله يتندرون على العجز والأعراب، ويتفكهون بأحاديث أولئك وهؤلاء، ويسخرون من أولئك وهؤلاء. حتى إذا تقدم الليل واطمأن كل شىء تفرقوا، ونهض الفتى ثقيلاً، فمشى إلى بيته متباطئًا يود لو فرّ من النوم، ويود مع ذلك لو نام فألم به هذا الطائف. انظر إليه! إنه ليتردد: أيقذف بنفسه فى أمواج النوم هذه التى تتمثل أمام عينيه؟ أم يبقى على الشاطئ يقظان يداعبه النوم ولا ينام؟ ليتردد ما استطاع، ليمتنع على النوم ما وسعه الامتناع؛ فإن هذه الأمواج المصطخبة أمامه تستطيع أن تطغى على الشاطئ فتغمره، وتغمر معه كل شىء. وكيف يستطيع هذا الفتى أن يمتنع عليها، وما استطاعت أن تمتنع عليه جبال مكة هذه التى تحيط بها م ن كل ناحية!! انظر! أترى حركة؟ اسمع! أتحس نبأة؟ كل شىء هادئ، كل شىء مطمئن؛ فما نبوك وما امتناعك!! هلم إلى النوم ولا تخف شيئًا؛ إن هذه الأمواج تريح ولا تغرق. أقبل إلى هاتين الذراعين اللتين تمتدان إليك، فستنسى بينهما كل شىء. ومن يدرى! لعلك تجد بينهما شفاء لنفسك الحائرة. وأطبق الفتى جفنيه واندفع أمامه، فاشتملت عليه أمواج النوم كما اشتملت على غيره من الناس والأشياء. ولكن ماذا؟ هذا شخص يتقدم ساعيًا هادئًا كأنه يمشى على الهواء، حتى إذا دنا من الفتى، قال فى صوت رقيق غريب، فيه أنس وفيه وحشة: "احفر المضنونة". جسمُ الفتى هادئ ولكن صورة من الحيرة قد ارتسمت على جبهته، وهذا صوت خفيف رقيق ينبعث بين شفتيه وهو يقول: "ما المضنونة؟" فينصرف الشخص. ويفيق الفتى مذعورًا مأخوذًا، وقد أظلم فى نفسه كل شىء، وأحاط اليأس بعقله وقلبه وضميره، لا يرتفع بصره على السماء، ولا ينخفض إلى الأرض. ولا يمتد إلى أصنام الكعبة، ولكنه يدور حائرًا. وينهض الفتى وهو يقول: ما أرى إلا أنى سأجن؛ لئن أصبحتُ لآتين الكاهن، فلعلى أجد عنده من هذا العارض شفاء.

أقبل أيها الصبح! أسرعْ فى الخطو، ارفُقْ بهذه النفس الحائرة؛ هلم إلى سوطك المشرق المضىء، فبدد به هذه الأشخاص المائلة، فرّق به هذه الظلال المضطربة من حولى. ويقضى الفتى ليلاً طويلاً ثقيلاً، حتى إذا كست الشمس بضوئها النقى ظواهر مكة وبطاحها، أسرع الفتى إلى المسجد يريد أن يقص أمره على الكاهن. ولكنه لا يكاد يبلغ مجالس قريش فى فناء المسجد، حتى تذهب عنه حيرته، ويفارقه وجومه، ويمتلئ قلبه اطمئنانًا وثباتًا. ماذا؟ أأزعم للكاهن أنى مجنون، وتشيع فى هذه المقالة، ويضحك منى حرب بن أمية ولداته، ويتندَّر على فتيان مخزوم!!

كلا! ما أكثر هذه الخيالات التى تسكن إلى نفسها فى قبور الموتى، وتختبئ فى الكهوف والأغوار ما أضاءت الشمس واستيقظت الطبيعة، فإذا أظلم الليل ونام الكون، انتشرت هذه الخيالات فى الجو فمنها ما يصعد فى السماء يرعى النجوم، ومنها ما يهبط الأرض يروِّع الناس. وما أرى أن هذا الطائف الذى يؤرقنى منذ ثلاث إلا خيالاً من هذه الخيالات، لعله ظلُّ ميت من موتى قريش قد أنسيه قومهم، فهم لا يزورونه ولا يقرِّبونه إليه. لعله شيطان من هذه الشياطين التى تلح على الإنس فتتقاضاهم الطاعة وتُخضعهم لسلطانها كرهًا. لعله نذير من أحد الآلهة يطالب بالتضحية والقربان. لقد مضت أيام ولم تُقدَّم إلى الآلهة شاة ولم يُنحر لهم جزور، ولم تصطبغ أرض المسجد بهذا الدم الحار القانى الذى تحب الآلهة لونه ورائحته. إيه يا عبد المطل. تقرَّب إلى الآلهة بضحية ترضيهم لعلهم يرضون، ولعلهم يكفون عنك هذا الشر. وأقبل الفتى على مجلس من مجالس قريش، فتحدث وسمع، ولكنه كان شارد النفس، فلم يُطل الحديث ولا الاستماع ونهض موليًا. فلما انصرف عن القوم قال حرب بن أمية لمن حوله: أرأيتم إلى سرىِّ بنى هاشم! إنى لأراه محزونًا، وإنى لأعرف فى وجهه الهمَّ، لم يحدثنا اليوم عن مآثر أبيه ومفاخر عمه.

ومضى الفتى إلى أهله. فلما دخل على امرأته أنكرت عودته إليها من الضحى، فاستقبلته دَهِشةً وهى تقول: إيه يا شيبة! ما خطبك؟ إنى لأنكرك منذ أيام. أراك مؤرَّق الليل، قلق النهار، قليل الحديث، طويل التفكير. ولقد هممت أن أسألك مرات، ولكنى خشيت ردَّك على وانتهارك لى؛ فإنى لأعلم فيكم معشر قريش رقة للنساء ودعابة معهن، ولكنى لا أجد عندك ما أجد عند قومك؛ أنت صامت إذا خلوت إلى أهلك، وأنت مقطب الجبين إن ظلك معهم سقف. تحدَّث! ما يحزنك؟ اخرج عن هذا الصمت الذى لزمته، كن رجلاً من قريش، أشرك أهلك فيما يعنيك. لقد أذكر يوم أنبأنى أبى أنك خطبتنى إليه. لقد فرحت بهذا النبأ، لقد كنت أتحدث إلى أترابى فى البادية بأنى سأصبح امرأة من قريش، أجد من نَعمة الحياة ولينها، ومن ظَرف الزواج ورقته ما لا يجدن تحت خيام بنى عامر بن صعصعة. ولكنى وجدت نَعمةً ولينًا، ووجدت حبًا وعطفًا، ووجدت عناية لا تعدلها عناية، ولم أجد أحبَّ ما كنت أطمح إليه: لم أجد منك ابتسام الثغر، ولا انبساط الجبين، ولا انطلاق اللسان. قالت ذلك وانتظرت هنيهة. فأجابها زوجها بصوت هادئ حزين: عزيز على يا سمراء ما تجدين من حزن، وما تحسين من خيبة أمل! إنى لأحبُّك كما يجب الظمآن ما ينقع غُلته من الماء العذب إنى لآنس إليك أنسًا يزيل عن نفسى كل همٍّ، ويحبب إلى الحياة ويرغبنى فيها. إنى لاشتاق إلى التحدث إليك والاستماع لك والأنس بك. ولو خيرت لما عدلت بمجلسك مجلس قريش، ولا ببيتك فناء المسجد ودار الندوة. ولكن قوة خفية عاتية طاغية تملك على نفسى، وتأخذ على كل سبيل وتدفعنى إلى حيث لا أدرى ولا أريد. إيه يا سمراء..! إنى لمؤرق الليل، فلق النهار، مفرّق النفس منذ ليال، وإنى لأخشى على نفسى شرًا.

هذا طائف يلم بى إذا أغرقت فى النوم، فيأمرنى بصوت رفيق غريب، فيه أنس وفيه وحشة، أن أحفر شيئًا يسميه طيبة، ويسميه بَرة، ويسميه المضنونة، فإذا سألته عما يريد، انصرف شخصه، وانقطع صوته، وأفقت حائرًا مذعورًا لقد هممت يا سمراء أن أقص رؤياى هذه على الكاهن، وأن أصف له ما أرى وما أجد، ولكنى أشفقت أن يتحدث الناس عنى أنى مجنون، أو أن يتندر بى فتيان قريش فيقولون: إن له رئيسًا من الجن. أشيرى ماذا ترين؟ قالت سمراء: هَون عليك ولا تغلُ فى الخوف ولا تسرف فى الإشفاق. ما أكثر ما يلم أمثال هذا الطيف بالناس عندنا فى البادية، فلا يحفلون ولا يأبهون. ومع ذلك فما يمنعك أن تتقرب أنت إلى الآلهة ف يغير توسط للكاهن ولا توسل بله؛ فقم فضحَّ لهم، وقرِّب إليهم، فسيرضون وسيرضى الفقراء والجائعون، وسيغيظ ذلك قومًا من قريش.

وما هى إلا ساعات حتى كان فناء المسجد يموج بالناس، فيهم الفقراء قد أقبلوا من البطاح والظواهر، وفيهم الأغنياء قد أقبلوا يقدمون الضحايا بين أيديهم. هؤلاء يتنافسون أيهم يُغلى الضحايا ويكثر منها، وأولئك ينتظرون ويمنون أنفسهم بغريض اللحم وجيده. لقد سمعوا أن عبد المطلب يريد أن يضحى، وأن بنى هاشم قد حفلت لذلك؛ فكرهت أمية ألا تفعل فعلهم، وكرهت مخزوم أن تسبقه عبد مناف، أقبل أشراف قريش يستبقون فى التضحية ويتنافسون فى القربان. تنافسوا! تنافسوا أيها الأشراف! استبقوا أيها الأغنياء! فإن فى ذلك شبع الفقراء وسعادة الأشقياء.

وقضت مكة يومًا داميًا سمينًا، كثر فيه الطعام، وكثر فيه الشراب، ورضيت فيه الأصنام. وسعد الفتى بما رأى، ونسى الفتى ما كان يهمهُ وينغصه، وقدَّر الفتى أن قد صُرف عنه الشر، ورُدَّ عنه المكروه. ورضيت سمراء، فتحدثت كثيرًا وسمعت كثيرًا، وأضحكت زوجها وابنها الحارث بمُلح الأعراب ونوادر البادية، وقالت لزوجها وهى تمسح رأسه: أحببْ إلى بهذا الطائف الذى أرَّقك وأضناك؛ فقد حقق أملى وارانى ما كنت أطمح إليه، ورسم فى قلبى صورتك جميلة خلابة، فلن أراك منذ اليوم – مهما تكن الخطوب – إلا باسم الثغر، منبسط الجبين، منطلق اللسان، وهل السعادة إلا لحظات قصار، تصيبنا ولم ننتظرها ولم نقدَّر لها حسابًا؛ فما أسعد القلب الذى يحتفظ بهذه اللحظات حين تمر، ويتخذها ذخرًا للأيام وما يعرض فيها من الخُطوب!

قال عبد المطلب: إذًا فأنت راضية يا سمراء. إن رضاك ليقع من نفسى المخزونة موقع الماء من الأرض المجدبة. انعمى بما أنت فيه، وانتظرى أن يقدر الله لك خيرًا منه. فلو قد صُرفت عنى هذه القوة العاتية الطاغية، لأريتك يا سمراء كيف تطيب الحياة، وكيف ترقُّ حواشى العيش!

وأوى الفتى إلى مضجعه راضيًا مسرورًا، واستقبل النوم مبتهجًا له راغبًا فيه. ولكن هذا الشخص يقدم عليه ساعيًا فى هدوء، كأنما يمشى فى الهواء، حتى إذا دنا منه انحنى عليه، ووضع على جبهته يدًا باردة خفيفة وقال فى صوت رقيق غريب، فيه أنس وفيه وحشة: "احفر زمزم". واضطرب جسم الفتى كله، واضطربت نفس الفتى كلها، وانفتحت شفته عن هذه الكلمة: "وما زمزم"؟. قال الطيف بصوت رقيق مؤنس، قد فارقته الغرابة والوحشية، ومازجته وسخرية ورحمة: " لا تُنزَح ولا تُذَم"، تَسقى الحجيج الأعظم، وهى بين الفرث والدَّم، عند نقرة الغراب الأعصم". قال الفتى: "الآن قد وَعيت". فتولى عنه الطيف باسمًا هو يقول: "لله أنتم أيها الناس؛ لا يكفيكم الوحى، ولا تفهمون إلا سجع الكهان! رويدًا! عما قريب سيضىء الصبح!". ونهض الفتى مبتهجًا مسرورًا. فلما أصبح دخل على سمراء مشرقَ الوجه مضىء الأسارير.

قالت وهى تسعى إليه: أيهما أحبُ إلى نفسى إشراق وجهك أم إشراق الشمس! ما أرى إلا أنك قضيت ليلاً هادئًا.

قال: انعمى صباحًا يا سمراء! لقد طابت الحياة منذ اليوم. إن هذا الطائف الذى يلمّ بى منذ ليالى، طائف خير يأتى بالنعمة والغيث. إنه يأمرنى أن أحتفر فى فناء المسجد بئرًا، فلأفعلنَّ منذ اليوم. ولئن ظفرت بها ليشربن الحجيج فى غير جهد ولا عسر. هلمّ يا حارث خُذْ معولاً(١) ومكتلاً(٢) ومسحاة(٣) واتبَعْ أباك.

---

(١) المعول: الفأس العظيمة.

(٢) المكتل: زبيل من خوص.

(٣) المسحاة: المجرفة التي يجرف بها التراب والطين من على وجه الأرض.